وجوه الإعجاز القرآني في مفهوم الخطَّابي

فوزية محمد صقر [1]

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله الطيبين وصحابته الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد ...

فقد كان الكشف عن وجه الإعجاز، والتعرف على دلائله مطلباً عزيزاً أثيراً. انصرفت إليه جهود الباحثين والدارسين قديماً وحديثاً، ليقعوا على السر الذي من أجله كان القرآن الكريم بهذه المكانة العالية، التي لا ينالها أحد ولا يطمع فيها بشر مع أنه كلام من الكلام المألوف المعروف، وكان من بين الجهود التي عنيت بدراسة الإعجاز وبيان وجوهه جهود عالم واجه مسألة الإعجاز مواجهة مباشرة، فألف فيها رسالة سماها "بيان إعجاز القرآن" ذلكم هو الإمام الخطَّابي.

أهمية البحث:

- يُعد الخطّابي أسبق علماء عصره إلى البحث عن الإعجاز بحثاً علمياً منظماً، وكذا تعد رسالته "بيان إعجاز القرآن" أول مصنف –فيما أعلم– في الإعجاز يصنفه إمام من أهل السنة.
- كان للعلماء وقفات مهمة مع سر الإعجاز، تعددت معها رؤيتهم للموضوع، فتعددت إثر ذلك وجوه إعجاز القرآن. ومن هنا تظهر حاجة الباحثين إلى التعرف على تلك الرؤى وما فيها من عطاءات تستدعي إبرازها لطلبة العلم والمختصين.
- الاطلاع على آراء العلماء – ومنهم الخطّابي– في وجوه الإعجاز يعين الطالب على التعرف على إعجاز القرآن، ويُلقي أضواء من جوانب وزوايا كثيرة على مواقع إعجازه.

وقد خُتم البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي تم التوصل إليها.

التعريف بالخطّابي وبرسالته بيان إعجاز القرآن

أولاً – التعريف بالخطّابي:

اسمه ونسبه ومولده وأسرته

أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم(1) بن الخطّاب الخطّابي البستي(2). والخطّابي نسبة قيل: إنها لجده الخطّاب(3)، وقيل: إنها لزيد بن الخطّاب(4) – رضي الله تعالى عنه– وهو ما أفاده جمع من

[1] - ع. هـ. ت.، كلية التربية، جامعة الزيتونة.

أهل العلم ممن ترجموا له، وهو أيضاً ما نصت عليه كتب السيرة والأنساب. ولقد كان مولده بمدينة بست في شهر رجب سنة 319هـ من أبوين لم أقف على ترجمة أي منهما، كما لم أعثر على خبر أحد أقربائه أو أفراد عشيرته، ولعل السبب في ذلك هو عدم اشتغالهم بطلب العلم وشهرتهم به وشيوعه فيهم قبله.

شيوخه:

تتلمذ الخطّابي على عدد كبير من علماء عصره في العلوم المختلفة، وأكتفي بذكر بعض منهم:

1- القفال الشاشي: هو محمد بن علي بن إسماعيل، الفقيه الأديب إمام عصره، أول من صنف في الجدل الحسن من الفقهاء، من مصنفاته: كتاب في أصول الفقه، وشرح الرسالة، توفي في سنة 336 هـ[5].

2- ابن داسة: هو محمد بن بكر بن محمد البصري، راوي السنن عن أبي داود، سمع عنه الخطّابي بالبصرة، توفي في سنة 346 هـ[6].

3- أبو العباس الأصم: هو محمد بن يعقوب بن يوسف، محدّث خراسان، ومسند العصر، وقد سمعه الخطّابي بنيسابور وأخذ عنه اللغة والأدب، توفي في سنة 346 هـ[7].

4- أبو علي الصفار: هو إسماعيل بن محمد بن إسماعيل، كان علّامة في النحو واللغة، وكان متعصباً للسنة مذكور الثقة والأمانة، توفي في سنة 341 هـ[8].

تلاميذه:

اتّسم الخطّابي بكثرة التلاميذ والآخذين عنه، وسأترجم لبعضهم ترجمة موجزة، ومنهم:

1- أبو حامد الأسفراييني: هو أحمد بن أبي طاهر بن أحمد، شيخ العراق وإمام الشافعية، وإليه انتهت رياسة المذهب، توفي في سنة 406 هـ[9].

2- أبو ذر الهروي: هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد، كان بصيراً بالفقه والأصول، صنف مستخرجاً على الصحيحين، توفي في سنة 434 هـ[10].

3- أبو عبد الله الحاكم: هو محمد بن عبد الله بن محمد، روى عن الخطّابي بخرسان، وفي بغداد حدّث عن أبي العباس الأصم وغيره، وكان إمام أهل الحديث في عصره، توفي في سنة 445 هـ[11].

4- أبو عبيد الهروي: هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن، كان لغوياً محدثاً، توفي في سنة 401 هـ[12].

وفاته: اتفقت المصادر كلها وكذا كتب الوفيات جميعها على أن وفاة أبي سليمان الخطّابي كانت بمدينة بُست في رباط بها على شاطئ نهر "هِنْد مَنْد" ، واتفق أكثرها على أن ذلك كان يوم السبت السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة 388 هـ[13].

مؤلفاته:

أثرى الخطابي المكتبة الإسلامية والعربية بتآليف متنوعة[14] الأغراض والفنون، منها:

1- أعلام الحديث.

2- إصلاح غلط المحدثين

3- بيان إعجاز القرآن

4- تفسير اللغة التي في مختصر المازني.

5- شأن الدعاء

6- العزلة

7- غريب الحديث

8- الغنية عن الكلام وأهله

9- معالم السنن

ثانياً – التعريف برسالة بيان إعجاز القرآن:

اسم الرسالة وتوثيق نسبتها للمؤلف:

نجد الإشارة إلى هذه الرسالة في مقدمة الخطّابي لكتابه "شعار الدين"، يقول الخطابي: "أما بعد: فإن أخاً من إخواني سألني بيان ما يجب على المسلمين علمه، ولا يسعهم جهله، من أمر الدين وشرح أصوله: في التوحيد، وصفات البارئ تعالى، والكلام في القضاء والقدر، والدلالة على نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم– وبيان إعجاز القرآن، والقول في ترتيب الصحابة"[15].

والمطّلع على تراجم الخطّابي لا يجد ذكراً لهذه الرسالة، إنما يجده عند بعض من ألَّف في علوم القرآن فيما يتعلق بإعجاز القرآن[16].

موضوع الرسالة:

الحديث عن إعجاز القرآن، ووجوهه، والمختار منها.

أهمية الرسالة:

1- تُعد رسالة الخطّابي على وجازتها من أشهر مؤلفات الإعجاز في القرن الرابع الهجري لما اشتملت عليه من أفكار ومسائل عديدة لها تعلق وثيق ببيان الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم. ومما يشهد لذلك تجليته لموضوع المعارضات من خلال المقاييس التي وصفها للمعارضة السليمة، ليؤكد أن ما كان من مسيلمة وأمثاله لايجوز أن يكون من المعارضة، لإخلالها بقواعد الذوق السليم وأسس البلاغة الصحيحة[17].

2- كما تُعد رسالة الخطّابي الأصل العلمي والأساس المتين لنظرية النظم، وهي النظرية التي تزعمها وفصّل القول فيها الإمام عبد القاهر الجرجاني[18] بعد ذلك.

3- اشتملت الرسالة على تحليلات بلاغية رائعة، لشواهد كثيرة من آيات الذكر الحكيم، يتجلى من خلالها الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ومن أمثلة ذلك، ردّه على من أشكل على قوله تعالى **﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾** [19]، بأن الفصيح هو استعمال (افترس) مكان (أكل)، لملائمته للمقام، فقال: "إن الافتراس معناه في فعل السبع القتل حسب، وأصل الفرْس دقّ العنق، والقوم إنما ادّعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه فلم يترك مفصلاً ولا عظماً، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثرٍ باقٍ منه يشهد بصحة ما ذكروه، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل؛ على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع"[20].

ردّه لبعض وجوه الإعجاز:

ناقش الخطّابي الآراء التي قيلت في الوجوه التي أعجز بها القرآن العرب، وبيَّن رأيه فيها، فذكر مذهب القائلين **بالصَّرفة** وجها في الإعجاز، يقول الخطّابي: "وذهب قوم إلى أن العلّة في إعجازه الصَّرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدوراً عليها، غير معجوز عنها؛ إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات"[21].

ثم يذكر الخطّابي حجة القائلين بالصرفة، فهم احتجوا بقولهم: لو كان الله تعالى بعث نبياً في زمن النبوات، وجعل معجزته في تحريك يده أو مدّ رجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه ثم قيل له: ما آيتك؟ فقال: آيتي أن أحرك يدي أو أمدّ رجلي، ولا يمكن لأحد منكم الإتيان بمثل فعلي، ولا عاهة بشيء من جوارح قومه فحرك يده أو مدّ رجله فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يكن في مقدورهم، كان ذلك آية دالة على صدقه[22].

وينكر الخطّابي القول بالصَّرفة، ويردّ حجة القائلين به، ثم يسقطه من حساب المعجزة والإعجاز بأن الشأن في المعجزة أن تكون أمراً خارقاً للعادة، فالتحدي لا يكون إلا فيما هو خارج عن القدرة الإنسانية، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها[23].

وينتهي الخطّابي إلى أن القول بالصرفة مردود بقوله تعالى: **﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾**[24]، معلّقاً على هذه الآية بقوله: "فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة (معنى الآية) فدلّ على أن المراد غيرها"[25].

ويرى عمر الملّا، أن الآية لم تكن تتضمن ما يمنع القول بالصرفة، لذا فالاستشهاد بها لا يبدو دقيقاً في هذا المقام[26]. لكن عماد محمد يرى أن المتمعن في كلام الخطّابي يتبين له أن مقصود الكلام، أن صرف الله تعالى العرب عن الإتيان بما يعارض القرآن، لا يتلاءم مع حجم التحدي الذي صرحت به الآية الكريمة، فلم يكن هذا التحدي للإنس والجن مسوغاً، إذا كان الله تعالى قد سلب منهم القدرة على المجاراة وردّ التحدي[27].

وفي رأينا، يمثل ردّ الخطّابي للصَّرفة بآية الإسراء قطعاً لا يقبل الجدل، لأن صرف الهمم عن المعارضة يعني سلب القوى الممكِّنة من تلك المعارضة، وهذا المعنى تنفيه آية الإسراء، لأن من سُلبت قدرتهم لا يكون لتظافر جهودهم وتآزر مساعيهم أثرٌ يذكر، فدلّ على أن التحدي إنما وقع بنفس القرآن، وإن الإعجاز قائم في ذاته.

وممن جاء بعد الخطابي، ورفض القول بالصَّرفة، الباقلاني[28] فهو يرى في رفضه لها أنه لو كانت المعارضة في مقدور البشر وإنما منع منها الصرفة فإن الإعجاز في المنع لا في القرآن، وذلك يعني أنه لا فضيلة للقرآن على غيره من سائر أنواع الكلام، وهذا باطل[29]. فالقول بالصرفة "قول في غاية البعد والتهافت وأنه من جنس مالا يعذر العاقل في اعتقاده"[30].

وختاماً لهذا الحديث نقول: إن القرآن معجز في ذاته لمزايا وخصائص استقرت فيه، تقصر طاقة البشر وقدرتهم على مضاهاتها، لهذا ورد التحدي بالقرآن ذاته، ولا يزال هذا التحدي قائماً، والعجز من البشر ثابتاً إلى قيام الساعة.

انتقل الخطّابي بعد رفضه لفكرة الصرفة إلى فكرة **تضمن القرآن للأخبار المستقبلة**، يقول الخطّابي: "وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان نحو قوله سبحانه: **﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾**[31]".

ويرد الخطّابي ذلك الزعم بقوله: "ولا يشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها، فقال: **﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[32] من غير تعيين، فدلّ على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه"[33].

فالخطّابي في نصِّه السابق، نفى أن يكون الإخبار بالغيب وجهاً من وجوه الإعجاز، لكونه غير موجود ومتحقق في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل الله تعالى كل سورة معجزة قائمة بنفسها، فالسورة التي تخلو من الإخبار بالغيب هل تخلو من الإعجاز على زعم القائلين بذلك؟ وهل يمكن

المجيء بمثلها؟ هذا غير صحيح، وغير واقع، فدلَّ على أن الإعجاز هو شيء آخر غير ذلك، لأنه لابدَّ أن يتحقق في كل سورة بلا استثناء.

ويعلق أحد الباحثين على قول الخطّابي السابق فيقول: لا يبدو كلام الخطّابي هنا منسجماً ففي الوقت الذي أقرَّ فيه أن الإخبار عن الأمور المستقبلة وغيرها من المغيبات، إحدى وجوه الإعجاز، عاد ليفنده استناداً إلى أن الإعجاز يجب أن يشمل كل القرآن، في حين أن هذا لا يتوافر مع الوجه الذي نحن بصدده، فهل يوجد إعجاز جزئي في القرآن وإعجاز كلِّي؟ جعله يقرّ بأنه من وجوه الإعجاز ثم نفاه، هذا مالم يبينه[34].

ولعلنا نجيب على التساؤل السابق فنقول: عدّ الخطّابي الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة نوعاً من أنواع الإعجاز الدالة على صدق الوحي والنبوة، لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– ما كان ليعلم الغيب، فمن الذي أخبره بما سيكون؟ وقد تحقق ذلك بتمامه وكماله كما أخبر الله تعالى في كتابه، لا شك أن الذي يعلم غيب السموات والأرض هو الذي أخبره بذلك، فثبت بذلك صدق الوحي وصدق النبوة.

والخطّابي برده لزعم تلك الطائفة قنَّن المسافة التي حاولت طائفة من العلماء إسباغها على مجمل النص القرآني بكون إعجازه فيما حواه من الإخبار عن المغيبات، ليصل بذلك إلى تبيان هذه الحقيقة وهي: إن إخبار القرآن بالغيوب لا يعني كون إعجازه متأصلاً بهذه الحالة، بل هو من علامات الإعجاز الدالة على صدق الرسالة المحمدية.

وممن قال بالإعجاز الغيبي سواء أكانوا من المعاصرين للخطّابي، أم من الذين جاءوا بعده، نذكر منهم: الرماني[35] الذي جعل الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة أحد وجوه الإعجاز السبعة التي قالها[36]، والباقلاني الذي عدّ الإخبار عن الغيوب الوجه الأول في جملة ما ذكره من وجوه الإعجاز[37]. أما من رفض أن يكون الإخبار عن الغيب من وجوه الإعجاز فإننا نلمس عند البعض منهم أثر الخطّابي في رفضه، ففخر الدين الرازي[38]– مثلاً– لم يرتضِ أن يكون الإخبار بالغيوب وجهاً من وجوه الإعجاز، وحجته في ذلك أن التحدي وقع بكل سورة في القرآن، والإخبار عن الغيوب ينتفي وجودها في كل سورة[39].

المختار من أوجه الإعجاز عنده:

وبعد مناقشة الخطّابي لوجوه الإعجاز المتداولة في عصره، ينتهي بوجه **إعجازه البلاغي** الذي عليه أكثر علماء النظر، وقد عاب الخطّابي على البلاغيين معالجتهم للبلاغة فقال: "وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال"[40]. فالخطّابي يقبل بالبلاغة وجهاً لإعجاز القرآن كما ذهب أكثر العلماء، إلا أنه يعيب على معاصريه تسليمهم بصفة البلاغة للقرآن الكريم على نوع من

التقليد غير المستوضح لكيفيات هذه البلاغة وطرائقها، ولهذا فإنهم إذا ما سئلوا عن تحديد البلاغة التي اختص بها القرآن، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة أجابوا: بأنهم لا يمكنهم تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر يعلم به مباينة للقرآن غيره من أنواع الكلام، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده تحديداً بيّناً [41].

والحق أن أصحاب الطبع والذوق من علماء الإعجاز أحسوا بروعة أسلوب القرآن وطريقة تأليفه ونظمه، وهم جميعاً تيقنوا أن ما استشعروه من جمال نظم القرآن أقوى من أن يحدده أحدهم أو يفسره التفسير الواضح البيّن، ولهذا ظلت ملاحظاتهم واستنتاجاتهم في بلاغة القرآن رهينة لحكم أذواقهم، فهم يستشعرون روعة الخطاب القرآني في نفوسهم، ولكن لا قدرة لهم على تعليل أسباب تلك الروعة.

والخطّابي أحسّ كغيره من علماء الإعجاز بروعة أسلوب القرآن، وطريقة تأليفه ونظمه، ولكن هذا في رأيه "لا يقنع في مثل هذا العلم"[42]؛ لأن الباحث المدقق عن باطن العلة لابد أن يقتنع بالعلل المناسبة لمقام الإعجاز.

ولهذا نراه يحاول تحديد أسباب العلة في الإعجاز، مرجعاً العلة فيه إلى درجات الكلام المختلفة "فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة"[43]؛ وبلاغة القرآن في رأي الخطّابي قد حازت من كل قسم من هذه الأقسام حصة[44]. وهذه الحيازة قائمة على جمع هذه الأقسام المختلفة في موضع واحد على نحو من الاتساق والالتئام، فتجيء بلاغة القرآن مباينة لبلاغات البشر وقاهرة لهم؛ إذ قد تجيء هذه الأقسام "على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلّا في كلام العليم القدير"[45].

ثم يأخذ الخطّابي بعد ذلك في عرض الرأي الذي ارتضاه في الإعجاز، وهو أن القرآن معجز بفصاحته وبلاغته ونظمه، يقول الخطّابي: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه وأما المعاني ... هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها"[46]، فالبلاغة المعجزة ترجع عنده إلى فصاحة اللفظ وجزالته وعذوبته وحسن النظم وتأليفه المتلائم المتشاكل، وصحة المعاني التي تشهد لها العقول بالتقدم.

ويعود الخطّابي بعد ذلك إلى تلخيص رأيه في السر البلاغي للإعجاز القرآني، مفهِماً الناس "أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أفصح المعاني"[47].

ويناقش الخطّابي بعد ذلك الأسس التي بنى عليها نظريته في النظم، ويبدأها بالأساس الأول، وهو اللفظ، ويرى فيه أن يكون اللفظ موضوعاً في مكانه اللائق به والذي يتطلبه المعنى، فإذا وضع اللفظ في غير مكانه فسد معنى الكلام وذهب رونق البلاغة[48]. أما الأساس الثاني فهو المعنى، ويرى فيه أن الميزة البلاغية لا تتعلق بالألفاظ وحدها في حال الإفراد، بل لا بد أن يضاف إليها المعاني التي تحملها تلك الألفاظ. ويصل الخطّابي إلى نظوم تأليف الكلام، وهي الأساس الثالث في نظريته فيرى أن الحاجة إلى الثقافة والحدق فيها أكثر؛ لأنها اللجام الذي يربط الألفاظ والمعاني على نحو متلائم[49].

وهكذا نرى أن الخطّابي قد ردّ الإعجاز القرآني إلى فنية النظم فدرس العبارة باعتبارها وحدة متكاملة بلفظها ومعناها ونظمها، وبيّن أن أسلوب القرآن هو الذي يحقق النظم في صورة جميلة، تقصر طاقة البشر وقدراتهم عن الإتيان بمثلها.

تأثير القرآن في النفوس:

كان موقف العرب من القرآن موقف المبهور المتحير الذي لا يدري إلا أنه أمام قوة فوق قواه، وذلك للهيمنة النفسية التي يأخذ بها القرآن قارئه، فيستولي بها على النفوس ويأسر بها المشاعر وقد تنبه الخطّابي إلى هذه الهيمنة، واعتبرها وجهاً هاماً من وجوه إعجازه قد غفله كثير من الباحثين قبله، يقول الخطّابي: "في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلّا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها"[50].

وبحسب رأي حفني محمد فإن الخطّابي قد وضع يده على ناحية عظمى من الإعجاز إذ وضح لنا كيف أسرت كلمات الله تعالى القلوب، وهزت جوانب الوجدان، واختلطت بأدقّ الأحاسيس وأرق المشاعر، حتى جعلت من السامع عقلاً يذعن، وقلباً يخشع[51].

ويعد عبد الكريم الخطيب هذا الوجه، المعجزة القائمة في القرآن أبداً، الحاضر في كل حين، أما الوجوه الأخرى لإعجاز القرآن فهي وجوه لا تظهر لكل ناظر، ولا تتجلى في كل حين، وهذا بخلاف الإعجاز التأثيري الذي لا يخفى على أحد عالم أو جاهل، عربي أو غير عربي[52].

تناول الخطّابي الأثر النفسي للقرآن بصورة علمية واضحة ومحددة، وذلك بتأصيله هذا الوجه للإعجاز بأدلة قرآنية، ومواقف من السيرة النبوية. نذكر من شواهده التاريخية، "خرج عمر بن الخطاب

-رضي الله عنه- يريد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويعمد لقتله، فسار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه، فلما وقع في سمعه لم يلبث أن آمن"[53]. أما شواهده من القرآن الكريم، فنذكر منها: قوله تعالى: **﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾**[54]، وقوله تعالى: **﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾** [55].

وقد التفت العلماء بعد ذلك إلى الأثر النفسي للقرآن، مقتفين في ذلك أثر الخطّابي. فهذا الباقلاني، يجعل لبديع نظم القرآن، وعجيب تأليفه، عشرة معاني، والمعنى العاشر هو أثره في النفوس[56]. والقاضي عياض[57] الذي عدّ من وجوه الإعجاز الروعة التي تلحق القلوب، وتطرق الأسماع عند سماعه، والهيبة التي تعتري النفوس عند تلاوته، لقوة حاله، وعلو قدره[58].

- وأخيراً نقول: إن الخطّابي لم يكتفِ في حديثه عن بلاغة القرآن المعجزة ببيان عناصر النظم وحسب، بل تحدث عن عناصر النظم وفاعلية هذا النظم في النفوس.

الخاتمة:

أختم هذه الدراسة بذكر النتائج الآتية:

1-اتخذ الخطّابي النقد والبلاغة وسيلتين للوصول إلى سر الإعجاز القرآني.

2-قدّم الخطّابي بحثاً في الإعجاز متطوراً، فيه جدَّة، خاصة فيما يتصل منه بفكرة النظم.

3-رسم الخطّابي المعالم الكبرى للإعجاز البياني، وهي ثلاثية اللفظ، والمعنى، والرباط الناظم، وهي ركائز متينة يمكن للمتأمل أن يدرك إعجاز القرآن من خلالها.

4-تحرى الخطّابي الدقة في بحثه عن الوجوه المعجزة فلم تختلط لديه وجوه الإعجاز بأدلته؛ لأنها لا تمثل الأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، ولم يقع بها التحدي.

5-أسقط الخطّابي الصَّرفة من حساب المعجزة والإعجاز، لما رأى فيها من غضّ لفكرة الإعجاز، وتوهين للجانب البلاغي الذي عنده هو أصل الإعجاز.

6-أظهرت الدراسة أهمية الأثر النفسي لبلاغة القرآن في بحث الإعجاز. يتجلى هذا في جعله وجهاً مستقلاً في الإعجاز.

الهوامش

[1]- تنظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان،214/2، وفي: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 631/1، وفي: اليافعي، مرآة الجنان، 327/2، وفي: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 208/2، وفي: ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، 349/11.

[2]- قال السمعاني: "هذه النسبة إلى بُست ... وهي بلدة من بلاد كابل بين هراة وغزنة" ، السمعاني، الأنساب،224/2.

[3]- لم أقف على ترجمته.

[4]- هو زيد بن الخطاب بن فضيل العدوي، كان قديم الإسلام وشهد بدراً، واستشهد باليمامة في سنة 12 هـ ، تنظر ترجمته في: العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة ،604/2.

[5]- تنظر ترجمته في: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 152/2 -154 .

[6]- تنظر ترجمته في: الحنبلي، شذرات الذهب ،273/2.

[7]- تنظر ترجمته في: المصدر نفسه ،373/2.

[8]- تنظر ترجمته في: البغدادي، تاريخ بغداد،302/6.

[9]- تنظر ترجمته في: الحنبلي شذرات الذهب،178/3.

[10]- تنظر ترجمته في: المصدر نفسه، 254/3.

[11]- تنظر ترجمته في: البغدادي، تاريخ بغداد،369/4.

[12]- تنظر ترجمته في: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 396/2 .

[13]- ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 631/1 ،والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 208/2، والذهبي، تذكرة الحفاظ، 150/3.

[14]- للتعرف على مؤلفات الخطّابي ينظر: ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، 634/1 ، والسبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ،290/3، والحنبلي، شذرات الذهب،127/3 ، واليافعي ، مرآة الجنان ،327/2 ، أما الحديث التفصيلي عن مؤلفات الخطابي، فينظر: الإمام الخطّابي المحدِّث الفقيه والأديب الشاعر، ص 93 -254 .

[15]- ينظر ما نقله عن ابن تيمية في: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، 241/1.

[16]- نذكر منهم: الزركشي، والسيوطي، ينظر البرهان في علوم القرآن،85/2، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ،116/2.

[17]- ينظر الخطّابي، بيان إعجاز القرآن(ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص 58.

[18]- هو عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، من كبار أئمة العربية والبيان، من مصنفاته: أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، توفي في سنة 471 هـ ، تنظر ترجمته في السيوطي، بغية الوعاة ، 106/2.

[19]- سورة يوسف، من الآية: 17.

[20]- الخطّابي، بيان إعجاز القرآن(ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص41.

[21]- المصدر نفسه، ص22.

[22]- المصدر نفسه، ص22-23.

[23]- ينظر: المصدر نفسه، ص23.

[24]- سورة الإسراء، الآية: 88.

[25]- الخطّابي، بيان إعجاز القرآن(ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص23.

[26]- ينظر: حويش، د- عمر الملّا ، تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية، ص247.

[27]- ينظر: محمود، د- عماد، محمد مناهج البحث البلاغي عند العرب، ص255.

[28]- هو أبو بكر محمد بن الطيب، المتكلم المشهور، كان في علمه أوحد زمانه، توفي في سنة 403 هـ، تنظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 269/4 - 270.

[29]- ينظر: الباقلاني، اعجاز القرآن، ص 30 .

[30]- عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)، ص 149 – 150.

[31]- سورة الروم، الآيات: 1-3.

[32]- سورة البقرة، من الآية: 23.

[33]- الخطّابي، بيان اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) ، ص 23- 24.
[34]- ينظر: محمود، د.عماد محمد، مناهج البحث البلاغي، ص 262.
[35]- هو علي بن عيسى الرمَّاني النحوي المتكلم، جمع بين علم الكلام والعربية، من أعلام المعتزلة، له مصنفات كثيرة، توفي في سنة 384 هـ ، تنظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 142/2.
[36]- ينظر: الرمَّاني، النكت في اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)، ص 75.
[37]- ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 33.
[38]- هو محمد بن عمر بن الحسين، الملقب فخر الدين، الفقيه الشافعي، فاق أهل زمانه في علم الكلام، توفي في سنة 606 هـ ، تنظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 248/4 – 252.
[39]- ينظر: الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص 56 -57.
[40]- الخطّابي، بيان إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص 24.
[41]- ينظر: المصدر نفسه، ص 24.
[42]- ينظر: المصدر نفسه، ص 24.
[43]- ينظر: المصدر نفسه، ص 26.
[44]- ينظر: المصدر نفسه، ص 26.
[45]- المصدر نفسه، ص 27.
[46]- ينظر: المصدر نفسه، ص 27.
[47]- ينظر: المصدر نفسه، ص 27.
[48]- ينظر: المصدر نفسه، ص 29.
[49]- ينظر: المصدر نفسه، ص 36.
[50]- المصدر نفسه، ص 70.
[51]- ينظر: شرف، د- حفني محمد، إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، ص 61.
[52]- ينظر: الخطيب، د- عبد الكريم، إعجاز القرآن "الإعجاز في دراسات السابقين"، ص 193.
[53]- الخطّابي، بيان إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص 70 ، وينظر: الأصفهاني، دلائل النبوة، 235/1.
[54]- سورة الجن، من الآيتين: 1-2.
[55]- سورة الحشر، من الآية: 21.
[56]- ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، ص46.
[57]- هو عياض بن موسى بن عياض، من أهل التفنن في العلم، عُرف بالذكاء والفطنة والفهم، استقضى ببلده مدة طويلة، ثم نقل عنها إلى القضاء في بلدان أخرى، توفي في سنة 544 هـ ، تنظر ترجمته في: السيوطي، بغية الوعاة، 513/1.
[58]- ينظر: القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 376/1 -377.

المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.
2- الأصفهاني، أبو نعيم الأصفهاني، (1986م)، دلائل النبوة، تحقيق: محمد رواس، وعبد البر عباس، دار النفائس.
3- الباتلي، د- أحمد عبد الله، (1996م)، الإمام الخطّابي المحدِّث الفقيه والأديب الشاعر، دار القلم- دمشق.
4- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب (بدون تاريخ)، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف.
5- البغدادي، أبو بكر أحمد بن الخطيب،(بدون تاريخ)، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية.
6- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، (1426هـ)، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، تحقيق: د- يحيى بن محمد الهنيدي، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

7- الجرجاني، أبو بكرعبد القاهر بن عبد الرحمن،(1968م)، الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله، د- محمد زغلول سلام، دار المعارف.
8- الحموي، أبوعبدالله ياقوت بن عبد الله الرومي، (1991م)، معجم الأدباء، دار الكتب العلمية.
9- حويش، د. عمر الملّا، (1972م)، تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية، بغداد.
10- الحنبلي،عبد الحي بن محمد العكري، (بدون تاريخ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية.
11- الخطّابي، أبو سليمان حمد بن محمد ، (1968م)، بيان اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله، د- محمد زغلول سلام، دار المعارف.
12- الخطيب، د.عبد الكريم،(1975م)، إعجاز القرآن "الإعجاز في دراسات السابقين"، دار المعارف – بيروت.
13- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد،(بدون تاريخ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د- إحسان عباس، دار صادر.
14- الذهبي، شمس الدين بن محمد بن أحمد،(1998م)، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية.
15- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر،(1989م)، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: أحمد حجازي السقا، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع.
16- الرمّاني، أبو الحسن علي بن عيسى،(1968م)، النكت في اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د- محمد زغلول سلام، دار المعارف.
17- الزركشي، بدرالدين محمد بن عبدالله، (2008م)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: د.محمد متولي منصور، مكتبة دار التراث.
18- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين،(1999م)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: مصطفى عبدالقادر، أحمد عطا، دار الكتب العلمية.
19- السمعاني، أبو سعيد عبدالكريم بن محمد بن منصور،(1962م)، الأنساب، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي.
20- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر،(بدون تاريخ)، الإتقان في علوم القرآن، دار مكتبة الهلال.
21- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر،(1979م)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر.
22- شرف، د- حفني محمد،(1970م)، إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، القاهرة.
23- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر،(بدون تاريخ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر.
24- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل،(2003م)، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية.
25- محمود، د- عماد محمد ، (2013م)، مناهج البحث البلاغي عند العرب، دار الكتب العلمية – بيروت.
26- اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي،(1997م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتب العلمية.
27- اليحصبي، عياض بن موسى،(بدون تاريخ)،الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق: علي بن محمد البجاوي، دار الكتاب.